

الفصل العاشر

التصور

تصل الأشياء الخارجية إلى الذهن ممثلة في مجموع صفاتها ، ويسمى هذا المجموع المدرك الحسى^(١) . هذا المدرك الحسى هو أقرب شئ ، إلى الحقيقة ، وإلى الشئ الخارجى الموجود فى الواقع ، لأنه يصل إليك عن طريق الحواس ، وأنت منتبه إليه ، مثل إدراكك الكتاب الذى تقرأ فيه الآن ، وصلت منه أشعة ضوئية تحدد شكله وحجمه ولونه ووقعت على العين ، وتقلها عصب الإبصار إلى منطقة الإبصار فى المخ فعرفت أنه كتاب . ولكنك تستطيع أن تصرف النظر عن هذا الشئ الخارجى الموجود أمامك فى الواقع ، ثم تستحضره فى ذهنك على هيئة « صورة » ليس إلا . ذلك أنك تخزن فى العقل المدرك الحسى ، ثم تخرجه إذا شئت دون أن يكون الشئ موجوداً ، وهذا ما نسميه « الصورة »^(٢) .

ولست جميع الصور من ناحية نوعها ، ومن ناحية سهولة أو صعوبة استحضارها ، ومن ناحية مكانها فى الترتيب واحدة . فالصور البصرية هى تلك التى نستحضرها عن طريق البصر . وأكثر الناس بصريون ، بمعنى أن تصورهم للأشياء يكون عن طريق البصر لا عن طريق الحواس الأخرى . والأشخاص الذين هم من هذا الطراز يتذكرون ما مرّ بهم من قراءات باستحضار الصفحات المطبوع فيها الكلام . كذلك يترجمون الكلام إلى صور بصرية إذا كان ذلك

Percept. (١)

Image. (٢)

مستطاعاً ، والقانون في نظرهم قاضٍ يلبس رداء القضاء . والبصريون أقسام منهم من يتصور الأشكال ، ومنهم من يتصور الألوان ، ومنهم من يتصور الأبعاد الهندسية . فلاعب الشطرنج يتصور في ذهنه حركة القطعة التي سينقلها والموضع الذي ستصل إليه ، والصورة هنا بصرية حركية في آن واحد .

والصورة السمعية هي تلك التي تستحضرها في الذهن عن طريق السمع . فإذا سمعت نغم بوق السيارة ثم اختفى النغم ، تستطيع أن تستحضر صورة هذا الصوت في ذهنك فيخيل لك أنك تسمعه . كذلك إذا سمعت النغم الموسيقي فإنك تستحضر صورته في الذهن بعد سماعه . والسمعي حين يريد أن يستعيد درساً حفظه يستحضره عن طريق السمع لا عن طريق البصر ، كأنه يسمعه ، وإذا أراد أن يجمع عددين فإنه يتم بثفتيه أرقام هذين العددين . والموسيقيون سمعيون ، فقد كان « بيتهوفن » يردد صدى مقطوعاته الخالدة في باطن نفسه ، حتى بعد أن أصيب بالصمم . والقدرة على التصور السمعي أقل من التصور البصري سواء عند الناس على وجه العموم أم عند الشخص الواحد .

والصورة الحركية هي تصور الأشياء المتحركة ، مثل تصور سيارة تجري ، أو رجل يمشي ، أو حركة الذراع في الهواء . وهناك صور شمعية وذوقية ولمسية ، وهذه جميعاً أصعب في استحضارها بل نادرة .

وأغلب الناس أوساط ، بمعنى أنهم لا يختصون بنوع واحد من هذه الأنواع السابقة وهي البصرية والسمعية والحركية ، بل لهم القدرة على استحضار الصور السابقة كلها .

وليس شك في أن الصورة تكون أقل دقة ووضوحاً من إدراك الأشياء نفسها ، إذ ينسى المتصور كثيراً من التفاصيل ، بل كثيراً ما يضيف من عنده

أشياء لم تكن موجودة . وهناك تجربة قال بها « السير فرانسس جالتون » حين توجه إلى العلماء أن يسترجعوا الصور المتعددة عن مائدة طعام الإفطار ، بما عليها من شاي ولبن وجبن وبيض وصحون وملاعق . . . الخ مع التفصيل الدقيق من حجم وشكل ولون . وتستطيع أن تجرى هذه التجربة على نفسك الآن . فهل تستطيع أن تسترجع طعم ورائحة اللبن أو القهوة أو البيض أو الفول أو الجبن ؟ هل تستطيع أن تسترجع خشونة الخبز أو نعومته ؟

وإذا وازنا بين الصورة والإحساس فإننا نجد أنهما يؤديان إلى نفس النتائج الفسيولوجية والنفسية ؛ فالشهر حين يجلس إلى المائدة ، ويتصور أطباق الطعام واللذة التي سيحصل عليها ، يسيل لعابه مقدماً . والطفل الذي تهدده بالعقاب ، يتصور ألم العصا فيبكي .

التصور والأدب

مما يجعل للآثار الأدبية قيمة ولذة ، وبهاء ورونقاً ، أن نستحضر في الذهن الصور الحسية لما نقرأ ، بصرية أو سمعية أو حركية أو أي نوع آخر ، فيتضح الأثر الأدبي في الذهن ، ونستمتع به أكبر الاستمتاع . فإذا قرأت نظم أمير الشعر المرحوم أحمد شوقي مثلاً ، وهو يصف الجسر الواصل بين ضفتي البوسفور ، واستحضرت الصور الحركية والبصرية الموجودة فيها ، فإنك بهذا التصور تملؤها حياة :

أمير المؤمنين رأيت جسراً	أمر على الصراط ولا عليه
له خشب يجوع السوس فيه	وتمضي الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه	سوى من القطيم بساعديه
ويبلى نعل من يمشى عليه	وقبل النعل يدمى أخمصيه

التخيل

التصور كالإدراك الحسى . هو نوع من معرفة الأشياء الخارجية ، مع الفوارق التى ذكرنا سابقاً .

ولكن هناك نوعاً من الخيال نبتعد فيه عن الواقع كما هو عليه ، ونخرج به إلى مستوى أعلى ، للعقل فيه أثر كبير . ذلك أننا لا نتصور صوراً بمفردها أو مجموعة من الصور دفعة واحدة ، ولكن الصور تتجمع متسلسلة متماكة ، بينها كثير من العلاقات المختلفة التى تؤلف معنى جديداً ، وهذا ما يسمى التخيل^(١) فالصورة واقعة واحدة ، والتخيل وقائع متعددة ترتبط بعضها ببعض ، وتسير متتابعة كسريط الخيالة . وللتخيل أنواع متعددة .

١ — من طبيعة كل شخص أن يبصر إلى حد ما مستقبل الأعمال التى يؤدىها وقد يكون هذا التنبؤ قريباً وقد يكون بعيداً . ويقوم التنبؤ على الاستنتاج أو الأمل أو الحلم أو الخوف أو الرجم ، فالاستنباء بالمستقبل أثر من آثار التخيل ، كذلك كل مشروع جديد هو نتيجة الخيال ، فرجال الأعمال ينفذون بخيالهم إلى تصرفات الناس . والحضارة نفسها تحمل بين طياتها عنصر النظر إلى المستقبل .

٢ — لا يمد الإدراك الحسى الإنسان إلا بجزء محدود جداً من العالم الخارجى ، وكذلك الذاكرة لا تستحضر إلا جزءاً من الماضى . وهنا يتدخل الخيال ليستكمل هذه المساحات المحدودة ، ويوسع آفاقها المنحجوة البعيدة .

٣ — ومن وظيفة الخيال تفسير حقائق العالم ، وقد يكون هذا التفسير جزئياً نعلل به حقيقة بسيطة محدودة بذاتها ، كوقوع سرقة أو ضياع شيء أو رسوب

طالب فى الامتحان . وقد يكون عاما كالقوانين الطبيعية التى تفسر حقائق الكون مثل قانون الجاذبية ، أو كالنظم الفلسفية والدينية .

٤ — واللعب نوع من الخيال الخالى من الغرض ، حيث يسعى الإنسان إلى اللهو دون المنفعة . فالطفل يركب العصا ويبعث فيها الحياة فيتخيل أنها حصان حقيقى . ولعب الكبار قد ينصرف إلى الفن ، فالرسم والموسيقى والتصوير وإنشاء الروايات خروج عن الواقع لإرضاء شهوة الخيال .

٥ — والأوهام المختلفة كالمذيان وأحلام اليقظة والأحلام ، إن هى إلا تخيل خرج عن حدوده وتفكك واكتسب هذه الصفة ، ويوصف التخيل فى هذه الحالة بالضرر ، ويعد هذا من أمراض الخيال .

وللخيال أثر كبير فى درس التاريخ ، لأنه يقرب الأشياء إلى الذهن ، ويبعث فيها الروعة واللذة والحياة ، ويمنع عنها السأم والملل . فإذا كنت تقرأ فى تاريخ « محمد على باشا » دعوته للماليك فى القلعة ، وهم خصومه الأقوياء ، وأصحاب الشأن فى البلاد من زمن ، ثم إجهازه عليهم فى مذبحة سالت فيها الدماء وقضى عليهم وهم عزل من السلاح على أيسر سبيل ، وقد بلغ عددهم حول الخمسمائة أو يزيد ، فأراح نفسه وأراح المصريين من شرهم المستطير هذا التخيل هو الذى يبعث الحياة فى المشاهد التى لم تقع تحت حسنا ، ولم تدخل فى تجربتنا ، وإنما نقرأ ونسمع عنها فقط .

ليس فى هذا النوع من التخيل جدّة أو إبداع أو خروج عن الواقع ، بل هو محاولة استعادة الصور على نسق ما يعرفه الإنسان ، والأهم عندنا هو بحث « التخيل المبتدع » الذى يؤلف صاحبه شيئا لم يكن موجودا من قبل كما سنفصل ذلك الآن .

الاختراع^(١)

العامل المبتدع هو الذى يخترع وسائل يخرج بها إنتاجاً أكبر بمجهود أقل والتاجر المبتدع هو الذى يعرف كيف يبتكر الإعلان الطريف ، ويرتب بضاعته الترتيب اللطيف ، ويقدم للمشتري الصنف الجديد . والكاتب المبتدع أو القصصى البارع هو الذى يصور الشخصيات ويلون الحوادث ، بحيث لا تكون نسخة من الحقيقة ، ولكنها حية معقولة تأخذ بمجامع القلوب . هذا الخيال هو الذى يستطيع الإنسان بواسطته أن يؤلف ويربط الأفكار والصور بطريقة جديدة مبتكرة ، بحيث يخلق الإنسان شيئاً جديداً لم يكن معهوداً من قبل .

الاختراع والسن :

يختلف التخيل المبتدع باختلاف السن ، فالخيال عند الطفل مرن مرونة شديدة ، إذ يظفر من أفكار وصور وأحلام إلى غيرها . واللمخيلة عنده قدرة عجيبة على قلب الأشياء ووضعها فى ثوب روائى ، فهو يجرد فى الريح التى تهب خارج الحجرة ، وفى الأصوات التى يسمعها صادرة عن الشارع ، أغرب الوجوه وأعجب الأصوات . واللعب البسيطة التى يتناولها بيديه هى شخصيات حقيقية ، يعيش معها كما نعيش نحن فى عالم الأحياء ، « قدمية » الطفلة بنت تجرى فيها الدماء ، وترى وتسمع وتتكلم ولذلك تحركها وتخطبها كأنها شخص حى .

وللطفل ميل خاص إلى تهويل الأحجام ، وتكبير قوى الإنسان ، وتجسيم الأشياء . أما الرجل فالحقائق تصدمه ، والواقع يحد من خياله ، فلا يستطيع أن يسبح فى عالم الخيال إلى ذلك الحد من الوهم والتهويل كالطفل . لأن العقل يضع

سداً يحول دون جموح الخيال . فالطفل لا يعرف من الحقيقة إلا معارف ضئيلة يخلطها بأحلامه ، ويضيفها إلى أوهامه ، وهو لا يدري إلى أى حد تتمزج الحقيقة بالخيال ، أما الرجل فذهنه مملوء بالحقائق التى تكبح جراح التخيل ، وتمنعه أن يذهب إلى غير حد .

عوامل الإبداع :

يعتقد كثير من الناس أن الخيال المبتدع لما كان صورة غير حقيقية ، فهو غير حقيقى فى كل شىء . ولكن الواقع خلاف ذلك ، لأن التخيل المبتدع لا يخلق المادة التى يتكون منها الخيال ، إذ أن هذه المادة موجودة . أما الصفات التى يمتاز بها كل اختراع فإنها ترجع إلى صفتين أساسيتين ، الصفة الأولى هى : « الجدة » وهى التى بها يتميز الابتكار عن الأشياء التى سبق أن مرت بنا والتى نتذكرها ، والصفة الثانية هى : أن كل اختراع مهما كان بسيطاً ، فإنه يحتوى على أسلوب من « النظام »^(١) .

فالاختراع هو تأليف العناصر المألوفة المعهودة بشكل جديد .

والذاكرة الجيدة ضرورة من ضرورات الابتكار ، لأن كل شىء جديد لابد أن يقوم على الذكريات الماضية ، والمعلومات السابقة . وليس من الضرورى أن يتكوّن التخيل من الصور العقلية فحسب ، بل الأغلب أن نلجأ إلى المعانى الجزئية والكلية ، والمعنى أو الفكرة يختلف اختلافاً بيناً عن الصورة ، لأن المعنى يحتاج فى درّكه إلى استجماع عدة قوى عقلية كالحكم والعقيدة والاستدلال والمنطق وإدراك العلاقات بين الأشياء .

وعلى العكس من ذلك فإن الذاكرة الصماء ، الشديدة الحفظ فى ناحية من النواحي ، تصبح معطلة للاختراع ، لأنها تقيد صاحبها فلا يملك تغيير ما حفظ ، بينما الابتكار جده ، والجدّة تغيير .

ولا بد للمخترع أن يحيط علماً بأطراف الموضوع الذى يريد أن يبتكر فيه ، لأن العقل لا يخترع إلا على حساب المعلومات السابقة ، وعلى ذلك فالذاكرة ضرورة من ضرورات الاختراع .

والنزعات الغريزية والفطرية من أهم عوامل الاختراع . وفى المثل المشهور « الحاجة أم الاختراع » . « فالمودات » الجديدة التى تقصد إلى الزينة هى أثر من آثار حب الظهور ، والمكتشفات والمخترعات والعلوم نتيجة غريزة حب الاستطلاع ، وقديماً اخترع الإنسان البدأى السلاح من الحجر المسنون والحديد المشحوذ لحاجة الدفاع عن النفس .

ويجب ألا ننسى أثر الوسط الاجتماعى فى بعث المخترعات ، فالحاجة تؤدى إلى انتقال الأفكار وشيوع الأعمال ، حيث تنتقل الفكرة من شخص إلى آخر ، ومن شعب إلى شعب ، ثم يعمل المخترع على تحسينها وكما لها . وقد تشيع الأفكار الجديدة فى جيل جديد بعينه مع بعد الشقة ، لأن الظروف الاجتماعية وأسباب الحضارة تؤدى إلى ذلك ، فى الوقت الذى كان « دارون » يمهّد لنظرية التطور فى انجلترا كان « لامارك » يذيعها فى فرنسا .

ويتم الاختراع فى ثلاث مراحل أساسية : تحليل وتركيب وإلهام^(١) .

١ — التحليل :

لأجل أن نؤلف بين العناصر الموجودة الحقيقية تأليفاً جديداً نسميه اختراعاً

يجب أن نحلل أولاً الأشياء إلى عناصرها . والتحليل هو نتيجة التخيل المبتدع ، فأنت إذا دخلت حديقة ، قسمتها إلى ستة أجزاء مثلاً فهذا حوض الزهر ، وهنا مجموعة الشجيرات ... إلى غير ذلك . فتحليلك الحديقة هذا التحليل هو نوع من الخيال . والعالم في نظر الطفل أو الرجل الجاهل شيء واحد أو مركب من أشياء لا عدد لها ، أما في نظر الشخص المتعلم فالعالم يتركب من ثلاث مواد ، صلب وسائل وغاز . فهذا التحليل نتيجة الإبداع .

٢ — التركيب :

بعد تحليل الشيء إلى عناصره تؤلف بين هذه العناصر تأليفاً جديداً غير موجود في الحقيقة . ففي الحديقة التي حللتها إلى أقسام تستطيع أن تؤلف بينها تأليفاً جديداً تتخيل الزهر يتدلى من الدوح والطير ينبت من الدوح إلى غير ذلك . وعندنا « طاليس » الفيلسوف اليوناني تخيل أن الماء هو أصل الأشياء ، لأنه يتجمد تارة فيكون صلباً ، ويصبح بالحرارة بخاراً تارة أخرى . والمصورون الذين لم يشاهدوا الملائكة ، يمثّلونهم في صورة بشر لهم أجنحة . والموسيقى البارع لا يفعل أكثر من التأليف بين الأصوات السبعة المعروفة فيخرج لنا لحناً جديداً شجياً .

٣ — الإلهام :

هذا التركيب الجديد يكون في الواقع نتيجة إلهام لا ندرى كيف يحدث ، ولم يستطع العلماء حتى الآن أن يعرفوا كنه هذه الهبة التي توجد عند بعض الناس وإليك مثلاً يبدو فيه أثر الإلهام واضحاً . كان « نيوتن » نائماً ذات يوم تحت شجرة فوقمت عليه منها تفاحة ، فتخيل أن سبب وقوع التفاحة هو « جاذبية » الأرض لها ، وكانت هذه الحادثة البسيطة سبباً في كشف قانون من أكبر قوانين

العالم ، فكيف تخيل نيوتن قانون الجاذبية ؟ فقد رأى الإنسان من آلاف السنين الأشياء تقع أمام بصره ، ورأى نيوتن نفسه آلاف الأشياء تقع أمامه ، فلماذا لم ينتبه إلى هذا الفرض إلا في تلك اللحظة ؟ لا شك أن هذا التخيل هو نوع من الإلهام أو الوحي ، أو هو قبس من النور يطرأ على العقل فجأة فينير ظلمته . ويمتاز الإلهام بصفة « المفاجأة » إذ يظل الإنسان حائراً لا يدري كيف يفعل فيما يريد أن يتذكر ، وإذا بالفكرة الجديدة تأتي إلى الذهن فجأة ، أو كما يعبر الشاعر « الفريد دى موسيه » « كجهول يهمس في آذاننا^(١) » .

والحقيقة أن الإنسان إذا كان لا يشعر كيف يصل إلى الاختراع ، فإن عقله الباطن أو اللاشعور يظل يعمل في الخفاء وينظم الأمور ، حتى تتهيأ النتيجة الأخيرة عنها فتطفو إلى مستوى الشعور ، ويُلهِم بها صاحبها .

ولنضرب مثلاً بسيطاً يتضح فيه التحليل والتركيب والإلهام . هبك تحل تمرين هندسة فإن أول شيء عمله هو تحليل هذا التمرين وتفكيكه ، ثم تظل ساعة لا تهتدي إلى الحل ، وإذا بك تصل إليه فجأة ، لا تدري كيف كان ذلك وإنما هو الإلهام ساعدك على تركيب العناصر التي حللتها ، وعلى تركيبها تركيباً جديداً هداك إلى الحل والصواب .

الاختراع النافع :

لأجل أن يكون الاختراع مفيداً ينبغي أن يكون للإنسان غرض يسعى إليه أولاً ، ونظام يخططه لتحقيق ذلك الغرض ثانياً ، وأن يكون كلا الغرض والنظام في حدود الإمكان ثالثاً . وفي هذه الحالة يصبح الاختراع مفيداً في كل مرافق

Comme un inconnu qui nous parle à l'oreille. (١)

الحياة ، في الحياة العادية العملية ، في العلوم والمخترعات وفي الفنون .
ينبغي أن يكون الغرض ممكن التحقيق ، فكثير من الناس يفرضون
لأنفسهم غايات هي شبه المستحيل ، كالتاجر الذي يكسب عشرة جنيهات في
الشهر ، فيقطع في ربح قدره ألف في الشهر التالي . هذه قصور تبني على الماء ؛
ومثل القوم الذين يطمعون في هذه الأغراض ، مثل الطفل الذي يتصور
إمكان الإمساك بالقمر .

فإذا وضعت لنفسك الغرض المعقول ، كالطالب الذي يتطلع إلى النجاح
بتفوق في الامتحان ، أو التاجر الذي يربح خمس عشرة جنيهاً في الشهر بدل
عشرة ، وجب أن ترسم خطة محكمة الوضع للوصول إلى الغرض . هذا النظام في
الخطة لا ينشأ إلا عن دراسة الموضوع الذي تعمل له دراسة وافية علمية قائمة على
أساس من الحقيقة والواقع والمعرفة . نرى كثيراً من الناس يعنون بوضع قصص
أو روايات ويتألمون لأنها لم تنجح ، والسرف في سقوطها وسقوطهم هو أن القصة أو
الرواية فن يحتاج إلى دراسة وإلى معرفة أصول الروايات وحبكها ولغتها وحوارها...
وقد فطن العالم المتحضر إلى هذه الحقيقة فقيّد المهن المختلفة — خصوصاً ما كان
منها ذا خطر على حياة الإنسان — بقيود الشهادات العلمية ، حتى لا يعمل
صاحب المهنة جزافاً بل يعمل على أساس . وهذا حق ، لأننا لا نستطيع أن نفهم
أن يقوم شخص لم يتعلم صناعة التماثيل والنحت والتصوير ، فيعمل تمثالاً كتمثال
نهضة مصر ، أو أن جاهلاً بمخترع جهازاً كهربائياً مفيداً .

فلأجل أن يكون الخيال مفيداً ينبغي أن يكون لك غرض مفيد ممكن
التحقيق ، ثم يجب أن ترسم خطة أو نظاماً تسير وفقه في تخيلك ، وتضع حدوداً
تقف عندها ولا تتخطاها . لتكون سنن يجري عليها ، قال الله تعالى « لا الشمس

ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » . فإذا خرج الخيال عن النظام الموضوع المقيد بالواقع والحقيقة ، وسبح الإنسان في الفضاء ، ينتقل من فكرة إلى فكرة دون غاية ودون رابطة معقولة بين الأفكار كان التخيل ضاراً بصاحبه . وسنضرب الأمثلة على فائدة التخيل في جميع مرافق الحياة :

١ — في الحياة العامة :

فأنت في كل لحظة من لحظات حياتك الخاصة تستفيد من التخيل المبتدع ، فمسكنك في منزل خاص يطل على حديقة غناء ، وترتيب حجراته بنظام مخصوص هو نتيجة الإبداع . ثم انتقاؤك الملابس والأحذية بحيث تكون ذات ألوان منسقة بديعة ، كل هذا من عمل الابتكار . كذلك التاجر الذي يصف « واجهة دكانه » والصحفي الذي يرتب جريدته والطالب الذي يصف الكتب في القمطر . . . إلى غير ذلك ، كلهم يعملون على أساس التخيل المبتدع .

وله غير ذلك أثر عظيم في خلق المثل الأعلى الذي هو ضروري لنا جميعاً ، ذلك أن الإنسان مثله مثل كل كائن حي يسعى إلى غاية ، هذه الغاية قد ركبت في الحيوان بالغريزة ، فهو يسعى إليها دون أن يعرف ذلك أو يشعر بها ، ولكن الإنسان قد تركت له الحرية في اختيار غاياته أو مثله العليا ، وهذا الانتخاب نتيجة الاختراع .

٢ — في الفنون :

الفنون الجميلة نوع من التعبير بالرموز والاستعارات كالرسم والموسيقى والنحت والشعر والقصص . . . إلخ ، عن المعاني والعواطف التي تجول في ذهن صاحبها .

ومنطق الفن مستمد من العواطف والمشاعر الباطنة . وهو شخصي^(١) . ويتمثل في الغالب في صور حسية حية . وللإلهام أثر كبير في بعث هذه الآثار الفنية ، وللفنانين فضل كبير في إبراز المعاني الخفية الغامضة التي تخفى عن أعين العامة من الناس ، فروايات « شكسبير » الخالدة تجلّي لنا العواطف الإنسانية كالغيرة والبخل والشرف إلى غير ذلك بحيث نلمسها بأيدينا . والفنون الجميلة جميعاً هي أثر من روائع الخيال .

٣ — في العلوم والمخترعات :

و يمتاز العلم عن الفن بأنه مشترك بين جميع الناس ، أى موضوعي^(٢) ، على العكس من الفن فإنه شخصي . وجميع المكتشفات العلمية والنظريات والقوانين إن هي إلا أثر التخيل المبتدع . فقانون الجاذبية ، وقاعدة أرشميدس ، ودوران الأرض وكرويتها ، كلها فروض هي نتيجة الابتداع . ولم يصل المخترعون إلى ما وصلوا إليه ، حيث تقدموا بالعلم والحضارة ، إلا بخيالهم الخصب المنتج .

أحلام اليقظة^(٣)

كثيراً ما ترى شخصاً قد شرد عن الانتباه إلى ما يحيط به ، وذهب مع نفسه يسبح في عالم الخيال ، فيصبح في حالة من شroud الفكر وتشتت الانتباه ، وهي الحالة التي يطلق عليها العامة لفظ « السرحان » . هذا الشخص الذي يفقد صلته بالعالم الخارجي ، يعيش بينه وبين نفسه ، فهو كالنائم ولكنه ليس بنائم . إنها حالة بين اليقظة والنوم . تُرى ما هي هذه الحواطر التي تجول في ذهن هذا الشخص ؟ كل منا تمر به هذه الحالة ، فهي أمر طبيعي ، ولا يعد ذلك مرضاً إلا

Objective. (٢)

Subjective. (١)

Rêveries. (٣)

إذا أكثر شرود الشخص إلى درجة تؤرق منامه وتعطل أحواله . وكل منا يتجه في أوهامه حسب ميوله ورغباته وظروفه ، وفي المثل « كل يغنى على ليلاه » ، فالطالب يذهب به الخيال إلى مرحلة الامتحان ، ثم يتصور بعد ذلك أنه جاز الامتحان بنجاح عظيم ، ثم هيأت له الظروف عملاً عظيماً في إحدى الشركات يدر عليه الربح الوفير فيلبس فاخر الثياب ، ويقتنى السيارات الحديثة . . . وهذا شخص أنيق الملبس حسن القوام ، يتخيل أن الخيالة لم تخلق إلا ليكون ممثلاً بها ، وأن الحظ أخطأه حتى الآن ، ولكن الزمن سيقبل عليه وسيصبح بعد حين كبير الممثلين . وهذا تاجر كاسد الحال يتصور أن الصفقة المقبلة ستكون خيراً وبركة ، ثم يمتلئ بالمال ، فيقضى ما عليه من دين ، ويوسع تجارته .

فما لا يستطيع الإنسان أن يحققه في عالم الواقع ، لا يجد سبيلاً إلى تحقيقه إلا في عالم الخيال . والباعث على ذلك أن الإنسان يحب دائماً تحقيق رغباته ، كالحصول على المال والمركز والزواج والأولاد والأسفار إلى غير ذلك ، وكثيراً ما تقوم عقبات كثيرة في طريق هذه الرغبات تحول دون تحقيقها ، فيعتمد صاحبها إلى أحلام اليقظة يسرى فيها عن نفسه ، ويحقق رغباته المختلفة .

الأحلام^(١)

يصحب النوم ظهور الأحلام . والحلم من طبيعة الإنسان ، بمعنى أنه عام عند جميع الأشخاص . ويعزو العامة إلى الأحلام قيمة كبيرة ، فيحاولون بها التعبير عن المستقبل ، وليس الأمر كذلك لأن العلم لا يؤمن بالكشف عن الغيب ، أما ما يؤثر عن تعبير الرؤيا بحيث تنبئ عن المستقبل ، مثل ما حدث ليوسف الصديق

في أرض مصر ، فهو من باب المعجزات الدينية ، والخوارق التي يختص بها الدين دون العلم .

وترجع أسباب الأحلام إلى اثنين : فسيولوجي ونفسي . أما السبب الأول فهو أن النائم لا يدرك شيئاً لا نعدام الانتباه والشعور ، فإذا حدث بداية ليقظة ، أمكن أن تصل الإحساسات إلى العقل ، لكنه لا يدركها على حقيقتها ، فيحدث نوع من الخداع . ثم يجسم النائم هذه الإحساسات ويركب منها ما يشاء من أحلام . فإذا سمع وقع رذاذ المطر على الشباك ، تخيل أنه قصف المدافع في حومة الحرب ، وإذا وخرته بعوضة توهم أنها طعنة سيف من عدو لدود . وللحواس الباطنة مثل هذا الأثر ، فإذا أكل الإنسان أكلة دسمة تتألم لها المعدة ، فإنه يظن أنه واقع في مغالب وحش مفترس هائل ، وهذا الحلم نسميه عادة « الكابوس » .

وأغلب الناس ينسون الحلم تماماً حين الصحو من النوم ، وقد لا يذكرون منه إلا طرفاً يسيراً ؛ ولكن الغريب أن بعض هذه الأحلام يتذكرها الإنسان بجميع تفاصيلها الدقيقة ، ومنها ما لا ينساها صاحبها طول الحياة .

والصور في الحلم تكون غريبة عن المألوف مقلوبة الأوضاع ، وينعدم فيها المنطق والتسلسل المعقول ، ولا يحسب للزمن حساب . وعلة ذلك أن الإنسان لا يدرك ولا يعي ما يحلم ، وتنعدم الرقابة العقلية التي ترغم الإنسان على التفكير في حدود الواقع والحقيقة . وكثيراً ما يخرج الحالم في الحلم على الحدود الخلقية والشرف الموضوع ، وسبب ذلك أن الإنسان يعود إلى الفطرة الأولى ، وإلى الغرائز الطبيعية الكامنة التي تنطلق على سجيته دون رقابة من المجتمع أو التقاليد أو الشرف أو الدين .

ومن أسباب بعض الأحلام أن الإحساسات التي تؤثر فينا في النهار ، لاتزول

ولا يمحى أثرها ، بل تستمر وتظهر في صورة الأحلام في الليل . وليست كل الإحساسات تبعث على ذلك ، بل الإحساسات الغريبة التي تنشأ عن المناظر غير المألوفة التي يراها الإنسان لأول مرة ويعجب لها . وهذه أحلام عارضة ، غالباً ما ينساها صاحبها سريعاً .

ونظرية « فرويد » في الأحلام مشهورة ، وخلصتها أن الحلم تحقيق رغبة لم يستطع صاحبها أن يحققها . وأحلام الأطفال واضحة الدلالة في تأييد هذه النظرية ، وأحلامهم بسيطة وتفسيرها يسير ، لأن حياتهم لا تعقيد فيها ، وهي تدل دائماً على الرغبات التي يودونها في أثناء النهار كاللعب والحلوى ... الخ .

ويقص « فرويد » عن نفسه أنه حلم أنه عطش عطشاً شديداً ، فأحضرت له زوجته الماء في « زهرية » زجاجية كان قد أحضرها معه من رحلة في إيطاليا . ولكن الماء حين شرب منه كان شديد المالح فازداد عطشاً ، ثم صحا من النوم ، فوجد نفسه ظامئاً . وتفسير هذا الحلم هو رغبة صاحبه في الشرب ، أما ظهور الزهرية فسببه أنها كانت ثمينة ولكنها فقدت ، فهو يرغب في عودتها .

ولا تجرى جميع الأحلام على هذا النسق ، بل منها ما يظهر في صورة ألم شديد ، وتظهر كذلك رموز رهيبة مخيفة ، كالأفاعي والحشرات السامة . وهذه تعبر عن الآلام التي تصيب الإنسان ، وعن المخاوف الكثيرة التي تحيط به ، كالخوف من الفقر ، والعار ، والفضيحة ، والجريمة ، والسجن . وكثيراً ما تكون هناك عقد نفسية مكبوتة في اللاشعور ، ولا يستطيع صاحبها أن يظهرها ، فيبعثها اللاشعور وتظهر في الحلم .